التكوين النفسي وصلته بالوحي القرآني

د/ سهير يس قنديل
المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

التكوين النفسى وصلته بالوحى القرآنى

تقديم

تحدث القرآن الكريم عن صفات للشخصية الإنسانية وسماتها التى يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، كما تحدثت الآيات القرآنية الكريمة عن النماذج العامة للشخصية الإنسانية التى تتميز ببعض الخواص، وهى عامة شائعة فى جميع المجتمعات الإنسانية وإذا أردنا أن نعرف سمات الشخصية الإنسانية ونحيط بدقائقها فلابد أن ندرس بدقه العوامل المختلفة التى تحدد نوعية الشخصية الإنسانية على دراستى لعلم النفس وجدت أن علماء النفس فى دراستهم للعوامل المحددة للشخصية إهتموا بالعوامل البيولوجية والإجتماعية والثقافية، بينما يهملون دراسة الجانب الروحى من الإنسان وأثره على الشخصية الإنسانية.

مما يجعل هناك نقصا فى تحديد ودراسة الشخصية الإنسانية، ولهذا نركز أولا على الجانب الروحى فى تحديد الشخصية، فإننا لانستطيع أن نفهم بوضوح هذه الحقيقة دون أن نتعرض لجميع العوامل الخاصة بذلك سواء كانت مادية أو روحية.

يقول تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾(١)

فالإنسان بطبيعته وتكوينه مزود بإستعداد للخير والشر والهدى والضلال فهو قادر على التمييز بين ماهو خير وما هو شر،

١- سورة الشمس الآيات من ٧ - ١٠

كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء وهذه القدرة كامنة فى كيانه وتصميمه.

فوظيفة العوامل الخارجيه أن توقظ هذه الإستعدادات ولكنها لاتخلقها خلقا فهى مخلوقة فطرة وكائنه طبعا وكامنه إلهاما.

وإلى جانب هذه الإستعدادات الفطرية قوة داعبة مدركة موجهه فى ذات الإنسان هى التى يدور عليها محور هذه الشخصية فمن إستخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وإتباع الخير وتغليبه على الإستعداد للشر فقد أفلح ومن أغفل هذه القوة فقد خاب.

فالإنسان هو الذى يبنى الأمم والمجتمعات وهو الذى تنهض به الحضارات فالحضارات تنهض على الصراع القائم بين عقل الإنسان وأهوائه وميوله ومختلف المغريات.

فكما إستطاع الإنسان كبح جماح أهوائه والتغلب على ميوله ورغباته والتسامى إلى عالم الفكر الروحى كلما أرتفعت إنسانيته وتهذبت مشاعره وقويت شخصيته التى هى مناط التقدم والتكاليف.

فالإنسان بطبيعته «كائن معتقد» بمعنى: أنه خلق ليكون صاحب عقيدة فى صحة أشياء وبطلان أخرى.

والدارس للتاريخ البشرى يجد أنه منذ وجود الإنسان على ظهر الأرض دائما يتطلع إلى وجود قوة أكبر من قوته يدين لها بالخوف والحب والطاعة، وهذا ما يعبر عنه بالعاطفة، ولعلها أسبق العواطف التى غرست فى النفس الإنسانية.

ومن هنا جاءت عبادة الإنسان لظواهر الطبيعة.

والقارىء لكتاب الله تعالى يجده يعرض لنا هذه الغريزة الإنسانية عرضا واقعيا يصور ما بداخل النفس الإنسانية من هذه التأملات حين تتلاقى العاطفة مع العقل.

يقول تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة﴾(١)

فهذه الآيات الكريمة تمثل نوعا من هذه النماذج التى تمثل الشوق الإنسانى إلى الكمال على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

ومن هنا نرى تزاحم الغرائز داخل النفس البشرية، وموقف العقل من ذلك حيث أنه لاينساق وراءها فى كل الأحوال.

ومن ثم كنا فى حاجة إلى دين سماوى وإلى إرسال الرسل.

وقبل أن نتعرض لهذه الدوافع بالتفصيل نبدأ أولا بالحديث عن النفس وصفاتها وإنقسام البشر إلى أنواع طبقا لذلك وإليك البيان:

المراد بالنفس وصفاتها عند العلماء

أولا: معنى لفظ النفس فى القرآن الكريم:

بتتبعى للفظ نفس فى القرآن الكريم وما قاله المفسرون فى معنى نفس أو ما تطلق عليه وجدت أنها تطلق على عدة معان

١- سورة الأنعام آيات من ٧٤ - ٧٩

منها:

أ - إطلاق لفظ نفس على الله تعالى:

وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (١)

أى يحذركم نقمته فى مخالفة أوامره ويحذركم سطوته وعذابه.

ب - إطلاق نفس على آدم عليه السلام كما فى قوله تعالى:

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ (٢)

فجمهور المفسرين على أن المراد بالنفس الواحدة ههنا آدم عليه السلام.

جـ - إطلاق لفظ النفس على الروح:

ويطلق لفظ النفس على الروح كما فى قوله تعالى:

﴿أخرجوا أنفسكم﴾(٣)

«أى أخرجوا أرواحكم إلينا من أجسادكم» (٤)

د - إطلاق لفظ النفس على الذات:

وتطلق النفس على الذات كما فى قوله تعالى:

١- سورة آل عمران آية ٢٨ ٢- سورة النساء آية ١

٣- سورة الأنعام آية ٩٣

٤- تفسير أبى السعود حـ٣ ص١٦٣ وتفسير الجلالين ص ١٨٤ والبيضاوى ص ١٨٤

﴿ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (١)

فالمراد بالأنفس هنا ذواتهم.

هـ - إطلاق لفظ النفس على الهاجس:

فكذلك يطلق لفظ النفس على هاجس النفس كما فى قوله تعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (٢)

قال الزفخشرى: وهاجس النفس سموهما نفسين إما لصدورهما عن النفس وإما لأن الداعيين لما كان كالمشيرين عليه والآمرين له شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين.(٣)

ثانيا: تعريف النفس عند المفسرين

النفس عند النسفى:

قال النسفى: والنفس ذات الشىء وحقيقته ثم قيل للقلب والروح نفس وللدم نفس لأن قوامها بالدم. (٤)

وقال ابن قيم الجوزية: وإنما سمى الدم نفسا لأن خروجه الذى يكون معه الموت يلازم خروج النفس وإن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس. (٥)

١- سورة البقرة آية ٩ ٢- سورة ق آية ١٦

٣- تفسير الكشاف حـ١ ص ١٧٥

٤- تفسير النسفى حـ ١ ص ١٩

٥- الروح فى الكلام على أرواح الأموات والأحياء لابن قيم الجوزية ص ٢٩٢ دار الكتب العلمية.

النفس عند الشوكانى:

وقال الشوكانى: فى تفسيره لقوله تعالى:

﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ والمراد بالنفس هنا ذواتهم لا سائر المعانى التى تدخل فى مسمس النفس كالروح.

النفس عند الألوسى:

وقال الألوسى: فى تفسيره لقوله تعالى:

﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (١)

النفس: حقيقة الشىء وعينه ولا إختصاص لها بالأجسام لقوله تعالى: ﴿كتب عى نفسه الرحمة﴾ (٢) وقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (٣) وتطلق على الجوهر.

البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإدارية وسماها الحكيم الروح الحيوانية وأول عضو تحله، القلب إذ هو أول ما يلخق على المشهور ومنه تفيض إلى الدماغ والكبد وسائر الأعضاء ولا يلزم من ذلك أن يكون منبت الأعصاب، وكثيرا ما تطلق على الجوهر المجرد المتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف وهى الروح الأمرية.

وهذه النفس تسمى النفس الناطقة وبتنوع صفاتها تختلف أسماؤها وأحظى الأعضاء بإشراق أنوارها المعنوية القلب ولذلك الشرف قد يسمى نفسا. (٤)

١- سورة البقرة آية ٩ ٢- سورة الأنعام آية ١٢

٣- سورة آل عمران آية ٢٨

٤- انظر تفسير روح المعانى حـ١ ص ١٤٨

النفس عند فخر الدين الرازى:

وقال الرازى: النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه. (١)

النفس عند البيضاوى:

وقال البيضاوى: النفس ذات الشيء وحقيقته ثم قيل للروح لأن نفس الحى به، وللقلب لأنه محل الروح أو متعلقة وللدم لأم قوامها به وللماء لفرط حاجتها إليه.

النفس عند ابن عباس:

وروى عن ابن عباس: أن النفس هى القلب وذلك فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ومايخدعون إلا أنفسهم﴾ (٢)

النفس عند الزفخشرى:

وقال الزفخشرى: والنفس ذات الشيء وحقيقته يقال: عندى كذا نفسا ثم قيل للقلب نفس لأن النفس به وكذلك بمعنى الروح وللدم نفس لأن قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. (٣)

قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حى﴾ (٤)

١- التفسير الكبير حـ ١ ص٤٦

٢- تفسير ابن عباس الموضوع بهامش تفسير الدار المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطى حـ١ ص٨

٣- تفسير الكشاف حـ ١ ص ١٧٥

٤- سورة الأنبياء آية ٣٠

هذا:

ومما سبق من أقوال العلماء يتضح للمتدبر أن النفس تطلق على الذات حقيقة وعلى غيرها مما يدخل فى مسمى النفس مجازا.

ثالثا: تعريف النفس عند علماء النفس

قال الشهر ستانى: فى الملل والبخل: «أن النفس الإنسانية جوهر ليس بجسم ولا قائم بجسم وأن إدراكها قد يكون بآلات وقد يكون بذاتها بغير الات وأنها واحدة وقواها كثيرة وإنها حادثة مع حدوث البدن وباقيه بعد فناء البدن.(١)

أو هى جوهر مجرد عن المادة وعوارضها أى ليست جسما ولا حالة فى جسم وإنما تتصل به إتصال تدبير وتصرف وبالموت ينقطع الإتصال. (٢)

فمن هذين التعريفين يتضح لنا أن النفس جوهر متصل بالبدن وهى مغايرة له وتدرك الأشياء بواسطة أدوات الإدراك كالبصر والسمع والشم واللمس، وقد يكون هذا الإدراك من داخل النفس أى الإدراك الباطنى كإدراك الإحساس الداخلى وهذا الإتصال يكون إتصال تدبير وتصرف وينفصل بالموت.

١- الملل والبخل المجلد الثانى ص ٢٢ بيروت

٢- معالم الفلسفة الإسلامية ص ٧١ -٧٢ محمد عبد الجواد، بيروت

رابعا: أقسام النفس عند الفلاسفة

أقسام النفس عند الفلاسفة:

قسم الفلاسفة النفس إلى ثلاثة أقسام: (الهو – الأنا – الأنا الأعلى)

١ – الهو: وهذا القسم من النفس يضم الغرائز والدوافع الجنسية والعدوانية وعلى ذلك فهو مستودع القوى والطاقات الغريزية وهو جانب لا شعورى عميق ليس بينه وبين العالم الخارجى الواقعى صلة مباشرة وهذا النوع يندفع وراء إشباع دوافعه إندفاعا عاجلا دون النظر للمنطق أو الأخلاق أو الواقع الذى يعيش فيه. (١)

الأنا: وهذا الجزء من النفس يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من الهو ويسيطر عليها فيسمح بإشباع ما يشاء منها ويؤجل ما يرى تأجيله ويكبت ما يرى ضرورة كبته مراعيا مبدأ الواقع والقوانين والأخلاق والتعاليم الدينية (٢)

فالأنا هو ذلك القسم من الهو الذى تعدل نتيجة تأثير العالم الخارجى فيه تأثيرا مباشرا بوساطة جهاز الإدراك الحى والشعور.(٣)

الأنا الأعلى: والأنا الأعلى يتكون من التعاليم التى يلقاها الفرد من والديه ومدرسيه ومن قيم الثقافة التى ينشأ فيها ويكون فى

---

١ – انظر علم النفس الإجتماعى د/حامد عبد السلام ص١٢٦ سنة ١٩٧٢

٢ – انظر القرآن وعلم النفس لمحمد عثمان نجاتى ص ٢١٧ وعلم النفس الإجتماعى ص١٢٦

٣ – سيجميد مزويد الأنا والهو ترجمة د/محمد عثمان نجاتى ص ٤٢ ط الرابعة.

نفسه قوة داخلية تحاسب الفرد وتراقبه وتنتقده وتهدده بالعقاب وهو ما يعرف بالضمير. (١)

المفاهيم الثلاثة للنفس فى القرآن الكريم

تحدثت فيما سبق عن النفس البشرية وأقسامها عند الفلاسفة والآن يجدر بنا أن نتعرف على هذه النفس من خلال آيات القرآن الكريم فنجد أن النفس فى القرآن متنوعة إلى ثلاثة أنواع هى:

النفس الأمارة بالسوء، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

يقول الرازى: وقد قال المحققون، إن النفس الإنسانية شىء واحد ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الإلهى: كانت نفسا مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب: كانت أمارة بالسوء (٢)

قال الرازى: ميالة إلى القبائح راغبة فى المعصيه (٣)

فهذه النفس تعود صاحبها إلى الأهواء والشهوات وملذات الدنيا حتى تغرقه فى إرتكاب الخطأ والمعاصى.

وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية: وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها فهو بعدها ويمنيها ويقذف فيها بالباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها. (١)

١- راجع القرآن وعلم النفس د/ عثمان نجاتى ص ٢١٦

٢- التفسير الكبير حـ ١٨ ص ١٥٧ والنيابورى الموضوع بهامش من جزء الطبررى حـ ١٣ ص ١٤

٣- المرجع السابق للرازى حـ ١٨ ص ٢٠٤

وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ (٢)

قال ابن كثير: «وأصل النزغ الفساد إما بالغضب وغيره»(٣)

فهنا إرشاد من الله تعالى إلى الإستعاذة به من شيطان الجان فإنه إنما يريد هلاك الإنسان ودماره فهو عدو مبين لك ولأبيك آدم عليه السلام من قبلك فيجب الحذر منه والإستعاذة منه على الدوام حتى لا نترك ثغرة ينفذ منها هذا الشيطان ليدمر حياة الإنسان إسترشادا بقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ (٤)

وقوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق﴾ (٥)

ففى قوله تعالى: ﴿وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾

بيان لحقيقة النفس البشرية وأنها ليست مبرأة تماما من الخطأ والزلل فنزكيها فإن نفوس العباد تأمرهم بما تهواه وإن كان هواها فى غير مافيه رضا الله، ثم عقب سبحانه على ذلك بقوله:

﴿إلا مارحم ربى﴾ يقول ﴿إلا أن يرحم ربى من شاء من خلقه فينجيه من إتباع الهوى وطاعة النفس فيما تأمره به من السوء والخسران﴾

١- الروح لابن قيم الجوزية ص ٢٠٤ ٢- سورة الأعراف آية ٢٠٠

٣- تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٢٧٨ ٤- سورة المؤمنون آية٩٧، ٩٨

٥- سورة الفلق آية ١ - ٢

وقد نسب الله تعالى صاحب هذه النفس الذى أطبق عليه هواه وسار تبعا له بأنه مثل الحيونات التى لا عقل لها ولا تمييز كما فى قوله تعالى: ﴿أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (١)

فهنا قدم إلهه، وهو المفعول الثانى على الأول لعلة وهى:

ما قاله الزفخشرى فى الإجابة على ذلك:

قدم عناية به كقولك ظننت منطلقا زيد، إذا كان عنايتك بالمنطلق.

قال أحمد: وفيه نكتة حسنة وهى إفادة الحصر فإن الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ أو خبر المبتدأ هواه والخبر إلهه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر فكأنه قال: ﴿أرأيت من كم يتخذ معبودة إلا هواه فهو أبلغ فى ذمه وتوبيخه﴾ (٢)

وفى تفسير ذلك يقول البيضاوى:

أرأيت من إتخذ إلهه هواه، بأن أطاعه وبنى عليه دينه لايسمع حجه ولا يبصره دليلا وإنما قدم المفعول الثانى للعناية به أفأنت تكون عليه وكيلا، حفيظا تمنعه عن الشرك والمعاصى وحاله هذا فالإستفهام الأول للتقرير والتعجب والثانى للإنكار، أم تحسب، بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون فتبدى لهم الآيات والحجج فتهتم بشأنهم وتطمع فى إيمانهم وهو أشد مذمة مما قبله

١- سورة الفرقان آية ٤٣، ٤٤

٢- تفسير الكشاف حـ ٣ ص ٩٣

حتى بالإحزاب عنه إليه وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر إستكبارا أو خوفا على الرياسة ﴿إن هم كالأنعام﴾ فى عدم إنتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات، «بل هم أضل سبيلا من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها فمن يسىء إليها» (١)

فهذه النفس تعود صاحبها دائما إلى الشر والهلاك.

فيجب على كل مسلم أن يتعوذ بالله من شر هذه النفس ويرشدنا إلى ذلك أيضا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

«روى أبو داود فى سننه عن عبد الله قال: «علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. (٢)

فيجب على الإنسان أن ينهى هذه النفس عن الهوى ويزجرها عن إتابع الشهوات والرذائل ويضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير، ويفضل الآخرة على الدنيا لأن من انهمك فى الدنيا وملذاتها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس فإن الجحيم هى المأوى.

يقول تعالى: ﴿فأما من ضغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم

١- تفسير البيضاوى ص ١٤٨١ تفسير الكشاف حـ٣ ص٩٤

٢- سنن أبى داود كتاب النكاح باب فى خطبة النكاح ص ٢٣٩

هى المأوى﴾ (١)

فالقارىء لما سبق يجب عليه أن يتدبر مغزى ومعنى الألفاظ والمعانى السابقة ويلوم نفسه ويحكمها ويحاسبها أولا بأول وهذا يتمثل فى النفس اللوامة، وإليك بيانها:

٢- النفس اللوامة:

وهى التى لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذل جهده ففيها يشعر الإنسان بعد أرتكابه للمعصية بذنب كبير ويلوم نفسه عليها وينأى عن هذا العمل ويتوجه بقلبه ووجدانه إلى خالقه تعالى طالبا عفوه وغفرانه وهو تائب.

وهذه النفس يمدحها الحق تبارك وتعالى فى كتابه بقوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ (٢)

وهذه النفس هى التى تلوم صاحبها وتحاسبه دائما فقد روى عن الحسن البصرى «أن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتى ما أردت بأكلتى؟ ما أردت بشربتى» (٣)

فهذا القسم فى قوله تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ معناه أقسم فذلك أوقع فى الحس من القسم المباشر..

يقول ابن كثير:

أنها تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات(١)

١- سورة النازعات آية ٣٧

٢- سورة القيامة آية ١، ٢

٣- إحياء علوم الدين للغزالى حـ ٤ ص ٤٥

فتظل هذه النفس تحاسب نفسها حتى ترتقى إلى مرتبة أعلى من ذلك وتتطلع إلى درجة من هو أعلى منها وتجتهد فى طاعة الله والبعد عن الأهواء حتى تصل بصاحبها إلى درجة النفس المطئنة وهذا بيانها.

النفس المطمئنة:

قال الرازى: الاطمئنان هو الإستقرار والثبات. (٢)

وعلى ذلك فالنفس المطمئنة فى قوله تعالى:

﴿يأيها النفس المطمئنة، إرجعى إلى ربك راضية مرضية﴾(٣)

هى النفس المطمئنة بالحق، أرجعى إلى رضوان ربك راضية بما أوتيت من النعم، مرضية بما قدمت من عمل، فهذه النفس هى التى أثنى عليها الحق تبارك وتعالى وبشرها بدخول الجنة فلا تنزعج ولا تتأثر حين يتأثر الناس فى يوم الهول الرهيب.

ويقول البيضاوى: هى التى اطمأنت بذكر الله فإن النفس تترقى سلسلة الأسباب والمسببات إلى الواجب لذاته فتستقر دون معرفته وتستغنى به عن غيره وإلى الحق بحيث لا يريبها شك والآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن. (١)

وقال الزمخشرى: المطمئنة، الآمنة التى لايستفزها خوف ولا

١- تفسير بن كثير «القرآن العظيم» حـ٤ ص٤٤٨ تفسير الجلالين ص٧٧٢ الروح لابن قيم الجوزية ص ٣٠٢

٢- التفسير الكبير للرازى حـ ٣١ ص ١٧٦

٣- سورة الفجر آية ٢٧، ٢٨

حزن وهى النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التى سكتها ثلج اليقين فلا يخالجها شك. (٢)

ويقول ابن قيم الجوزية: والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى بإعتبار كل صفة بإسم فتسمى مطمئنة بإعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه. (٣)

وحقيقة الطمأنينة التى تعبر بها النفس مطمئنه، أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله وخبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وإنشراح الصدر له وفرح القلب به والطمأنينه إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لا يقدر العبد على دفعها فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا ييأس على مافاته ولا يفرح بما آتاه بل يكون موقفه واحد لا يتزعزع.

يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن تبرأها، إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ (١)

ففى هذه الآية إخبار منه تعالى للبشرية جمعاء بأن قدره السابق فى خلقه من قبل أن يبرأ البرية أى من قبل أن يخلق

١- تفسير البيضاوى ص ٧٩٨

٢- تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٢٥٤

٣- الروح لابن قيم الجوزية ص ٢٩٥

الخليقة فلا راد لقضائه وما علينا إلا الإستسلام والرضا والدعاء لله.

وقال قتادة:

«وما أصاب من مصيبة فى الأرض» قال هى السنون يعنى الجدب «ولا فى أنفسكم» يقول الأوجاع والأمراض (٢)

ويقول القرطبى:

«فالكل مكتوب مقدر ولا مدافع له وإنما على المرء إمتثال الأمر ثم أدبهم فقال: «لكيلا تأسوا على مافاتكم» أى حتى لا تحزنوا على مافاتكم من الرزق، وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم ييأسوا على مافاتهم منه» (٣)

فإذا تحقق ذلك يصير الإنسان مطمئنا فى جميع أحواله.

ثم تمضى الآيات تباعا تنثر عليها الثناء والعاقبة الرضية التى إرتضاها لها الحق تبارك وتعالى: ﴿فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية تتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة، فهذه النفس هى التى تعلو بصاحبها إلى الرقى والإحساس بالرضا وتقوية الصلة بين صاحبها وبين الله سبحانه وتعالى فبذلك يطمئن قلب الإنسان بذكر الله.

يدل عليه قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (١)

١- سورة الحديد آية ٢٢

٢- تفسير بن كثير حـ ٤ ص ٣١٤

٣- تفسير القرطبى حـ ٧ ص ٦٤٢٨

نعم بذكر الله تطمئن القلوب حين تتصل الروح بخالقها وهذا الصنف من الناس هو الذى يصمد أمام العقبات لأنه مطمئن بالله فهو يفوض الأمر إلى مدبر هذا الأمر.

هذا ومما سبق يتضح للمتدبر أن الفرق واضح بين أنواع النفس عند الفلاسفة وعند المفسرين.

فمن الدراسة السابقة للنفس عند الفلاسفة وعند المفسرين من وحى القرآن الكريم أستطيع أن أصل إلى نقطة الإختلاف والفرق بينهما وهى:

أن الفلاسفة قد جعلوا النفس مقسمة ومجزأة إلى ثلاثه أقسام ولكل قسم منها إسم مستقل بذاته (الهو، الأنا، الأنا الأعلى) فهى أقسام مختلفة وعلى ذلك فإنها تتكون فى مراحل مختلفة من نمو الطفل.

أما فى القرآن الكريم فنجد أن مفاهيم النفس (الأمارة بالسوء، اللوامة، المطمئنة)

حالات مختلفة تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلى بين الجانب المادى والجانب الروحى فى شخصية الإنسان وفى ذلك أذكر قول الغزالى فى النفس وأنواعها حيث يقول:

وهى نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب إختلاف أحوالها.

فمن ذلك نلمس أن وصف الإنسان بهذه الصفات يجعل

١- سورة الرعد آية ٢٨

لدينا إتحادا بين الذات والصفات مما ينتج عنه الشخصية الواحدة.

أما تقسم النفس إلى عدة أقسام فأنه بدوره يؤدى إلى فروق بَين الذات والنفس مما يؤدى إلى تعدد الشخصية فى الإنسان الواحد.

لذلك فإنى أقول كما سبق بها المفسرون من قبل أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات متعددة، فيوصف الإنسان بحسب ما تميل نفسه إلى العالم الروحى أو العالم المادى.

وبعد أن انتهيت من دراسة النفس البشرية وأنواعها نتابع السير مع العوامل التى توثر فى هذه النفس والتى تجعلها متصفة بالصفات السابقة.

ألا وهى الدوافع، وقبل أن نفيض القول فى هذه الدوافع وأنواعها يطرأ على الذهن سؤال وهو:

ما الدافع وما الغريزة وما الصلة بينهما؟

وللإجابة على ذلك نقول: ـ

الدافع عبارة عن قوة أو طاقة كامنة تهدف إلى تحقيق غرض وهدف إذا وجد صاحبه نشاط يستمر ويتنوع حتى يشبع الدافع.(١)

أقسام الدوافع ...

والدوافع تنقسم إلى قسمين:

١- المدخل إلى علم النفس د/ عبد الله عبد الحى موسى ط الثالثة ص ١٨١

القسم الأول: الدوافع الفطرية أو الأولية أو الدوافع العضويه كما يسميها بعض العلماء: هى الدوافع التى يولد الإنسان مزودا بها كالجوع والعطش والدافع الجنسى.

القسم الثانى: الدوافع المكتسبة أو الثانوية أو الإجتماعية: فهى التى يتعلمها الإنسان أثناء نموه وتطوره فى الحياة الإجتماعية.

وفيما يلى بيان لهذه الدوافع بقسميها: ـ

الدوافع الفطرية والأوليه وهى:(المسمى بالغرائز)

أولا: الغرائز عند علماء النفس:

كثرت تعريفات العلماء للغريزة فى ضوء التحليل النفسى وهذا بعض منها:

١- قال كلا باريد: الغريزة فعل نافع يقوم به جميع أفراد النوع على نمط واحد من غير خبرة ولا تعلم ومن غير إطلاع على غاية الفعل أو على علاقة تلك الغاية بالوسائل المؤدية إليها. (١)

٢- قال بيه رون: الغريزة نزعة فطرية مشتملة على أفعال نوعية تبلغ درجة الكمال منذ بدايتها دون خبرة سابقة. (٢)

٣- ويرى أدلر: أن الغريزة قوة كامنة فى الكائن الحى تدفعه إلى أنواع مختلفة من السلوك. (١)

٤- ويعرف ماكدوجل: الغريزة بأنها إستعداد عصبى نفسى يدفع صاحبه إلى أن ينتبه ويدرك مثيرات من نوع معين

١- علم النفس ط الثالثة ص ٦٤٦ دار الكتاب اللبنانى

٢- المرجع السابشق ص ٦٤٧

ويشعربإنفعال من نوع خاص عند إدراكها. (٢)

٥- مدرسة التحليل النفسى: -

ويرى فرويد وأتباع مدرسة التحليل النفسى أن الغريزة تبدو فى صورة حاجات والحاجات على نوعين:

أ - حاجات فسيولوجية: كالحاجة إلى الطعام والشراب والإخراج والراحة.

ب - حاجات نفسية إجتماعية: كالحاجة إلى الحب والأمن والحرية. (٣)

٦- المدرسة السلوكية:

والمدرسة السلوكية: تنكر وجود الغرائز وترى أن كل سلوك يقوم به الكائن الحى عبارة عن سلسلة من الأفعال المنعكسة مثال ذلك: مراحل الأكل وأخذ الطعام ووضعه فى الفم ومضغه وبلعه.(٤)

ثانيا: عدد الغرائز:

وعدد الغرائز يختلف من إنسان لآخر عند من تعرض للبحث فى هذا الموضوع أذكر منهم:

١- المدخل إلى علم النفس د/ عبد الله عبد الحى موسى ط الثالثة ص ١٨٩

٢- المرجع السابق د/ عبد الله عبد الحى ص ١٨٩

٣- المدحل إلى علم النفس ص ١٩٦

٤- المرجع السابق ص ٢٠٠

أ – وليم جيمس: فقد حددها باثنتين وثلاثين غريزة وذكر منها الخوف، التقليد، الغيرة، النظام، التنافس، الإبتسام، الحب.

ب – وذكر ثور ندبك: عدد الغرائز بأنها إثنين وأربعون غريزة منها: الأكل. المقاتلة، الضحك، البكاء، العطش، السعال.(١)

ثالثا: الغرائز فى القرآن الكريم:

أن لفظ الغريزة يرد مباشرة فى القرآن الكريم فقد قمت بإستنباطها من آيات القرآن وأقول المفسرين طبقا للدراسة لها عند علماء النفس.

معنى الغريزة: هى القوة العاقلة التى محلها القلب. (٢)

وهذه الغريزة شيء فطرى من خلق الله ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وابكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ (٣)

فهذه الآية الكريمة تبين العديد من الغرائز الإنسانية وأنها من خلق الله وهى من الغرائز التى ذكرها العلماء.

١ – الضحك والبكاء:

وفى ذلك يقول ابن كثير «أى خلق فى عباده الضحك

---

١ – المرجع السابق (المدخل إلى علم النفس) ص ١٨٧

٢ –مدارج السالكين حـ ٣ ص ٢٤٧

٣ – سورة النجم آيات ٤٣ – ٤٤

والبكاء وسببهما وهما مختلفان» (١)

وقال الزفخشرى: «أى خلق قوتى: الضحك والبكاء»(٢)

وفى هاتين الغريزتين يقول الرازى:

«أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعين أن يبدى فى إختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجها وسببا وإذا لم يعلل، ولا بد له من موجد فهو الله تعالى» (٣)

والضحك هو المرحلة التالية للتبسم فالتبسم مبادىء الضحك، والضحك إبتسام الوجه حتى تظهر الأسنان فالتبسم والضحك غريزة لايتجرد عنها الإنسان وإنما المكروه هو الإكثار منه أو الإفراط فيه لأنه يذهب الوقار. (٤)

٢ - الغضب:

والغضب من الغرائز الفطرية التى عالجها القرآن الكريم والسنة الشريفة بالحلم والعفو والصفح وقد ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان آسفا﴾ (٥) وقوله ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح﴾ (٦)

وفى حقيقة الغضب يقول الغزالى:

١-تفسير بن كثير حـ٤ ص ٢٥٩

٢- تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٣٤

٣- تفسير الكبير للرازى حـ ٢٩ ص ١٩، تفسير النيابورى حـ ٢٧ ص٥٥ الموضوع بهامش ابن جرير الطبرى

٤-فتح البارى لشرح حجج البخارى حـ ١٠ ص ٥٠٤، ٥٠٥

٥- سورة طه آية ٨٦ ٦- سورة الأعراف آية ١٥٤

إعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه فى كتابه، أما السبب الداخلى: فهو أنه ركّبه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة. (١)

وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان فا كالسيف وسائر الملهكات فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات.

وقال الرازى: أيضا فى موضع آخر فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية وإنما خص الغضب بلفظ الغفران لأن الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة. (٢)

علاج القرآن الكريم لهذه الغريزة:

ونظرا لخطورة هذه الغريزة فقد عالجها القرآن الكريم بالحكم والعفو عند الغضب والتخلق بأخلاق القرآن كما فى قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (٣)

كذلك أرشد القرآن الكريم بأن يملك الإنسان نفسه عند الغضب فى قوله تعالى:﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ (٤)

والحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن

١-إحياء علوم الدين حـ ٣ ص ١٦٦

٢- التفسير الكبير حـ١٥ ص ١٠

٣- سورة الأعراف آية ١٩٩ ٤- سورة آل عمران آة ١٣٤

التحكم: أى تكلف الحلم وهذا يحتاج إلى مجاهدة، أما الحلم الطبيعى فهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل.

وكذلك وردت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التى تقرر ذلك أذكر منها:

ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب. (١)

٢- الموت والحياة:

وكذلك غريزتى: الموت والحياة، وأعنى: الخوف من الموت والرغبة فى الحياة.

وكثير من علماء النفس أرجع الغرائز كلها إلى هاتين الغريزتين لأهميتهما فإن الطفل إذا أحس بالخطر فإنه يبدأ بالمدافعه عن نفسه ويضرب غيره خوفا من الإعتداء ودفاعا عن النفس.

علاج القرآن لهذه الغريزة:

عالج القرآن هذه الغريزة الفطرية بأن أخفى علمها عن الإنسان ليظل الإنسان يعمل ويكدح لأنه لايدرى متى ساعته فأعطى له حب البقاء بذلك وبين أن لكل إنسان وقتا محدداً لموته وساعة معلومه لا يتقدم عنها ولا يتأخر فيقول تعالى:

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (١)

١- فتح البارى حـ ١٠ ص ٥١٨، ٥١٩

وبين سبحانه أن الموت لا يحجبه حاجز الزمان ولا المكان فى قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ (٢)

فإذا علم الإنسان ذلك أيقن أنه لا مانع من قدر الله فيظل يعمل ويجتهد ويتحرر بهذا اليقين من عبوديته للخوف وحبه للبقاء فترتقى روحه وتسمو غريزته.

غريزة الشح:

وهذه غريزة متأصلة فى النفس البشرية، يرجع سببها إلى حب التملك.

لذلك عالجها القرآن الكريم بالزكاة والإنفاق وبين أنهما يزيدان فى المال ولا ينقصانه فالزكاة معناها النمو وجاءت الآيات القرآنية الكريمة الواحدة تلو الأخرى لتحرر النفس البشرية من عبوديتها وحبها للمال، وتوجه هذه الغريزة إلى حب الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

فيقول تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(٣) وقوله ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ (٤)

فكذلك جاءت الآية القرآنية الكريمة تساير الفطرة وتعالجها ولا تواجهها وتحطمها.

فيقول تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين

١- سورة النساء آية ٧٨ ٢- سورة النساء آية ٧٨

٣- سورة الحشر آية ٩ ٤- سورة النساء آية ٢٨

والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوفة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾(١)

فهذه الأمور الدنيوية السامية عرضها القرآن الكريم عرضا واقعيا وبين أن هذه الأشياء هى التى تشتهيها النفس وتطلبها ويحب الإنسان أن يمتلكها فردعا لهذا الدافع ذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ حتى يحد من ثورة هذا الدافع وتطهر النفس البشرية من التعلق به.

قال القرطبى: وهذا منه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى: فيمن يتهافتون على جميع الأموال والحرص عليها والإشحاح بها ﴿وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حبا جما﴾ (٢)

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن هذا الصنف من الناس يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم فكانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون حق الجميع ولا يبالون هذا هذا الطريق حراما أم لا.

فقال تعالى تعقيبا وإنذار لهم «كلا» ودع لهم عن ذلك وإنكارا لأفعالهم وإشارة إلى سوء عاقبة هؤلاء المحبين لهذا الدافع.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر

١- سورة آل عمران آية ١٤

٢-سورة الفجر آية ٢٠ - ٢١

الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ (١)

وقوله جل شأنة: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ (٢)

أى إختبار لكم والله عنده أجر عظيم لمن أثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعى لهم فاتقوا الله ما استطعتم فاسمعوا مواعظه وأطيعوا أوامره.

ثم جاءت الآية الكريمة تعظ وتحذر بقوله تعالى:

﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾ (٣)

فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فانهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس فإن الجحيم هى المأوى.

وبعد ما بين سبحانه ذلك أى طريق الخير والشر أعطى الإنسان حرية الإختيار لأى الطريقين ولا يظلم ربك أحدا.

فقال تعالى مشيرا إلى ذلك:

«إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» (٤)

وقال سبحانه «وهديناه النجدين» (٥)

١- سورة المنافقون آية ٩

٢- سورة التغابن آية ١٥

٣- سورة النازعات آية ٣٧، ٣٩، ٤٠

٤- سورة الإنسان آية ٣

٥- سورة البلد آية ١٠

وقال تعالى ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾(١)

ويقول جل شأنه ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾ (٢)

فالبصائر جمع بصيرة وهى للنفس كالبصر للبدن سميت بها الدلالة لأنها تجلى لها الحق وتبصرها به فمن أبصر الحق وآمن به فلنفسه ومن عمى عن الحق وضل فعليها وباله.

دافع التنافس:

يختلف هذا الدافع بإختلاف المجتمع الذى ينشأ فيه الإنسان، فهناك مجتمع تسلط فكرة التنافس فيه على جمع المال وأخر التنافس الإقتصادى وغيره التنافس العلمى وكذلك التنافس على الوصول للسلطة.

فهذا الدافع يكتسبه الفرد من الظروف الإجتماعية التى تحيط به ففى المجتمع الإسلامى يجب أن تحد هذه الثورة لأنها تعمل على تفرقة المجتمع وإنهياره.

من أجل ذلك عالج القرآن الكريم هذا الدافع ودفع به إلى الخير وحول هذا التنافس الموضوع لأجل الدنيا وطوعه لخدمة الآخرة، فحث على التنافس فى تقوى الله والتمسك بالقيم الإنسانية العليا والمسارعة إلى عمل الخيرات سواء كانت تعبدية أو أخلاقية ويشير إلى ذلك العديد من الآيات القرآنية الكريمة أذكر

١- من الآية ٤٦ من سورة فصلت، ومن الآية ١٥ من سورة الجاثية

٢- الأنعام /١٠٤

منها:

١- قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (١)

ففيه إشارات إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لافى النعيم الذى هو مكدر سريع الفناء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنه عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾(٣) وقال تعالى ﴿فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ (٤)

الآن وبعد هذا العرض الواضح للتكوين النفسى وصلته بالوحى القرآنى وكيف سيطرت هداية القرآن الكريم على طبائع النفس البشرية وتطويعها إلى الخير والصلاح والنجاح فى الدنيا والفوز فى الآخرة.

هلا أدركت أيها القارىء وأيتها القارئة ما فى الجسم البشرى من تراحم للدوافع التى تجعله فى صراع مع نفسه فالصفات الحيوانية تجذبه إلى الشهوات والأهواء والصفات الروحية تجذبه إلى

١- سورة المطففين آية ٢٢ - ٢٦ ٢- سورة الحديد آية ٢١

٣- سورة البقرة آية ١٤٨ ٤- سورة المائدة آية ٤٨

تطهير النفس وترقيتها بعبادة الله سبحانه وتعالى مما يجعله يصل إلى مرحلة الكمال الروحى.

فإذا تغلبت هذه الصفات الروحية على هوى النفس تحققت السعادة فى الدنيا والآخرة.

أما أدركت أيها المتدبر لما سبق كيف توغل الدين الإسلامى فى قلب الإنسان ذاتا ونفسا حتى أنساه حبه وحرصه على المال والتكالب على الدنيا وهذه السمة من السمات الجوهرية لهذا القرآن الكريم.

وكذلك فى حالة الشر يظهر دافع العدوان كالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك فشرّعت الحدود حفظا للدماء والأموال والأعراض.

ليس هذا فحسب وإنما إزداد إهتمام المشرع بالترغيب فى الخير لبذل مزيد الثواب عليه والترهيب من الشر بوضع مزيد من العقاب عليه فى الدنيا والآخرة فكل هذه الوسائل كانت رادعة لهذا الدافع حينما يقدر الإنسان عواقب الأمور.

هذا هو التكوين النفسى للإنسان وموقف الوحى القرآنى منه حيث دخل التحليل النفسى أكبر وأعظم مدرسة قدمت العلاج للإنسانية، نعم إنه الأول والأخير لأنه من رب العالمين.

«إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»

د/ سهير يسين قنديل

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن